ثقافة

الياس خوري

الحلم ...
الذي لا يخون

في احدث كتاباته التأملية : « فك الارتباط مع الحلم » (مواقف — ٢٨ —) يؤشر محمود درويش الى مفاصل تجربته الفنية .

الغربة الواقعية ، التي لا تجد الانتماء الحقيقي الا لحظة الطلق ، حين يبدأ نزيف الدماء الذي يغطي وجه الارض . هنا يصبح العرس الحقيقي كل شيء ، ويتحول الانتماء الى توحد حلولي بأرض الوطن . ولحظة الطلق هي النقطة الفاصلة بين حالتين : اليأس والتحفز . وبين هاتين الحالتين ، تشحذ الكتابة اللحظة ، تسنن المواقف ولا تستسلم، تسأل نفسها عن الحلم ، لذلك تأتي نبرتها الفاجعة لتنتقل توتر العلاقة « ليس له وطن خارج هذا الوطن . ولكن ليس له وطن داخل هذا الوطن » .

فلسطين المستقبل ، التي تتحول الى رؤيا كاملة. انها رمز تتجمع داخله كل التناقضات . « على هذا المفترق ، يمثر كل عربي على فلسطينه الخاصة . ويدرك ان فلسطين ليست نقطة على خارطة . انها رؤيا كل عربي ، وصليب كل عربي . وانها امتحان ومستقبل » .

الحلم الذي يوحد فلسطين بالغربة ، ويقيم مقاييس جديدة ، تتجاوز اللحظة الراهنة ، لتستكشف مستقبلها . لذلك يصبح الانتماء الى الحلم ، انتماء الى المستقبل . ولا يتساقط الحلم ، بل يسقط الذين يعبثون به . « ولا نفك الارتباط مع الحلم » .

محمود درويش : **وداعا ايتها الحرب وداعا ايها السلام .**

مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . الطبعة الاولى — ايار — ١٩٧٤ .

تضيء هذه المفاصل الكتاب النثري الجديد الذي حاول فيه درويش التقاط الدائرة الكاملة التي رسمتها الحرب في الوجدان العربي ، منطلقا من الحب لينتهي فيه ، حاضنا اللحظة الساخنة ، دون الغرق فيها ، فالشعر ليس انخطافا انه رؤيا . والكتابة تأتي لتعيد صياغة الحدث ، ضمن مواقع التحول والتغير . هكذا تتمايز التجربة الفنية عند محمود درويش في قدرتها على استيعاب الحلم داخل التحولات الواقعية ، دون التخلي عن الحلم او الغرق في التفاصيل المباشرة للممارسة .

الصوت الواحد

في القسم الاول من الكتاب — حصان بحب غزالة — يضع محمود درويش القاعدة التي ينطلق منها . واذا كانت « وطن بقلم رصاصة » تحاول ملامسة البناء القصصي المركب من الخارج . فانها تصب في اخر المطاف ، داخل الصوت الواحد المتلىء صراخا وجروحا . الاقتراب من الاصوات المتعددة ليس سوى الاطار الذي سوف ترتفع داخله التأملات المتوترة . هنا حيث فلسطين تعني الشروع في الغربة والموت . وحين تبدأ المسيرة يتحدد شكل الوطن «وكان الوطن كقدم طفل ، محبوسا في حذاء حديدي . وكان سرحان لا يعرف اكثر من ذلك . هذا يكفي — كان يقول . لان الاعتراف بما هو ابعد يفيد المحققين ويوسع العبارة » . هنا تبدأ رحلة خروج الوطن من الزنزانة . وكتمهيد لهذه الرحلة، يقيم درويش خطا من التوازنات التي تمسك بهذه اللحظة في نقطة ارتكازها . فتصبح اللغة الشعرية هادئة ، ويتمدد المنطق الداخلي للتركيب المعقلن . لذلك يأتي التقطيع الشعري داخل رؤية متكاملة تمهد للشعر دون ان تصبح شعرا :